رواية قصيرة
تنين الظلام
آية مصدق

مقدمة

عندما تصبح مملكة تحت رحمة نيران تنين الظلام، يسكن الخوف في كل زواياها وفي عيون الأطفال، يخرج من وسط الخوف من يقف في وجه هذا التنين، ويبدد الظلام، ويكتشف أحد أسرار المملكة المدفونة.

إهداء

إلى من يؤمنون بقوة الكلمات.

إلى من يحبون الغوص في الصفحات.

إلى من يسكنون بين دفتي كتاب.

هذه رواية قصيرة، تقرأونها وأنتم ترتشفون كوب قهوة أو شاي.

ادثرت السماء بمعطف ثقيل من السحاب. زمهرير غاضب ينفث أنفاسًا ثلجية ترتعش لها أسقف المنازل، ألسنة الدخان تتصاعد كالأشباح وتتحد مع ظلمة الليل.

في عمق الظلام كان يحث الخطى نحو النهر حيث يقع منزله، مرتبكًا خائفًا، يدعو الله ألا تكون أيدي النار قد طالته. لكن هواجسه قد تحققت عندما لم يلمح شبح منزله على كتف النهر. تقدم بأقدام مرتعشة، لقد صار رمادًا. كانت النار أسرع منه، ولم يستطع إنقاذ زوجته وابنتيه. سقط أرضًا، لم تعد قدماه قادرة على حمله أكثر. سالت دموعه حتى سمع صوت ابنته "لارين". إنها هي، ذلك الصوت الرقيق العذب، من المستحيل أن يخطئه. رفع رأسه ورآها، ابنته الصغرى ذات القوام الرشيق، والشعر الأحمر الطويل، والوجه بلون الرخام، عبث به الدخان. زمردتان باكيتان تلمعان في الظلمة، وشفتان ترتعشان من الخوف. عانق ابنته بقوة ونزلت دموعهما بغزارة.

في الصباح، اجتمع أهل المملكة الناجون من الكارثة أمام قصر الملك بعد أن حضروا الموكب الجنائزي وودعوا ضحاياهم. ارتفع الهرج والمرج، إلا أن الجميع سكت عندما لاح الملك من شرفة قصره بملابسه العاجية، شاحب الوجه غائر العينين. مهد لخطابه بكلام مواسٍ، ثم تغيرت نبرة صوته، رفع رأسه وقال بحزم:

_ذلك التنين الشرير يسكن الغابة المحظورة، وسنرسل جيوشنا وكل قواتنا لقتله. أرجو أن تتلاحم قوانا جميعًا لتغلب عليه... أعدكم يا شعبي العزيز أننا سنقتل هذا التنين ونعلق رأسه على جدار المملكة.

صفق الجميع، وقد أعاد كلام الملك شيئًا من الأمان في نفوسهم. ثم انطلقت مواكب الجيوش بسيوفهم اللامعة، يمتطون الأحصنة، وآخرون يسيرون برماحهم السميكة نحو الغابة المحظورة، حيث البرج المهجور الذي يعيش فيه التنين الأسود الضخم، تنين الظلام.

مرت أسابيع وتوالت الأسابيع إلى شهور، ولم يعد أحد من الجنود. وفي صبيحة يوم خريفي، عاد حصان هزيل يحمل جنديًا غطت جلده بعض الحروق الطفيفة. دخل المملكة، وكان كل من يراه يلمح ذلك الكم من الرعب الذي تفصح عنه عيناه. فأيقن الجميع أن تنين الظلام لا يزال حرًا. سقط الجندي قبل أن يصل إلى الملك ومات بعد أن فتك به الجوع والعطش والخوف. فانتشر الهلع والفزع بين الناس بعد ذلك المنظر المهيب، ووقعت الجلبة والفوضى.

خرج الملك إلى شرفة القصر ثانيةً وأخبرهم أنه لا سبيل سوى قتل هذا التنين، وإلا سيحرق المملكة عن بكرة أبيها. لكن لم يستمع إليه أحد هذه المرة، فلم يعد هناك من يجرؤ على الذهاب إلى هناك. انزوى الجميع في منازلهم ينتظرون مصيرهم. ثم قرر الملك منح ثروة طائلة لمن يجرؤ على قتل التنين، لكن لم يصغِ أحد، فالحياة أكثر قيمة من الثروة.

في هذه الأثناء، كانت لارين تساعد أباها على إصلاح ما يمكن إصلاحه من المنزل، إلى أن أتى رجل وهمس في أذنه كلامًا لم تسمعه.

في اليوم التالي، استيقظت لارين ووجدت رسالة من والدها يخبرها فيها أنه ذاهب لمواجهة التنين الذي قتل زوجته وابنته مع قلة من الرجال الشجعان، وطلب منها أن تعتني بنفسها وأخبرها أنه يحبها كثيرًا.

بكت في ذلك اليوم كما لم تبكِ من قبل، وظلت تنتظر عودة والدها. كان هناك أمل ضئيل يختبئ في أحد زوايا روحها، لكنه انطفأ إلى الأبد عندما سمعت خبر موت.

الرجال الشجعان الذين ذهبوا لقتل التنين، ظلت وحيدةً في ذلك البيت، ولا تزال ذكرى تلك الليلة عالقةً به، وأنفاس التنين موسومة على جدرانه.

وصل فارسٌ يعلق سيفًا خلفه على ظهر فرسٍ هزيل إلى المملكة، كان هيكله شامخًا مفتول العضلات، صبغته الشمس بسمرةٍ خفيفة، ذات شعرٍ فاحم وعينين زيتونيتين. أتى من مملكةٍ بعيدةٍ ليقتل التنين ويظفر بجائزته القيمة. كان قد سمع الكثير عن هول ما حدث في المملكة، لكنه لم يظنه بهذا البؤس، فقد لمح الرعب يسكن عيون الناس، والمنازل مشوهةً متهالكةً، والرماد يرسم لوحاته على جدرانها. لم يسمع حتى صوت لعب الأطفال. كانت مجرد مملكةٍ تنتظر استيقاظ الوحش مجددًا، تنتظر الموت.

توجه الفارس إلى قصر الملك، أعطى حصانه إلى الحارس حتى يطعمه ويداوي ساقه المجروحة، ثم دخل على الملك وبجانبه حارسان آخران. نظر إليه الملك وسأله:

ـ ما طلبك أيها الفارس؟.

ابتسم الآخر بمكرٍ وقال بثقة:

ـ جئتُ يا مولاي من مملكةٍ بعيدةٍ بعد أن سمعتُ بأمر المكافأة، وأنا بين يديك أنتظر أمر حضرتكم للذهاب إلى الغابة المحظورة.

رفع الملك حاجبه وسأله ثانيةً:

ـ هل أنت متأكدٌ أنك تريد الذهاب؟.

أومأ الآخر إيجابًا. ثم أضاف الملك:

ـ حسنًا، لكن ستذهب وحدك. لقد أصبح جنودي طعامًا للتنين، ولم يعد هناك المزيد لأرسله.

عقّب الفارس على كلامه قائلاً:

ـ لا تقلق، سأذهب وحدي، فقط أطلب منكم أن تزودوني بالطعام والماء وجوادٍ سليم، فجوادِي كسرت ساقه في الطريق إلى هنا.

انتشر خبر الفارس الذي قدم من مملكةٍ بعيدةٍ لقتل التنين كالنار في الهشيم، ورحب به الجميع، وتعلقت آمالهم عليه. وصل الخبر إلى لارين التي تناقل أهل المملكة قصتها الحزينة.

جاء اليوم الموعود وأصبح الفارس مستعدًا للذهاب، بعد أن قضى أسبوعًا في القصر وكل الخدم تحت إمرته. خرج من القصر وقد واجه سيلًا جارِفًا من الناس يصفقون له وينظرون إليه بعيونٍ راجية حتى يُخلِّصهم من هذا الكابوس الذي لا يفارقهم. ودعه الملك شخصيًا وعانقه ثم قال:

ـ لقد أصبحت أملنا الوحيد، أرجو أن تعود منتصرًا أيها الفارس الشجاع.

لم ينبس الفارس بكلمةٍ واحدة وهو يُشتت نظره في أولئك الأطفال الذين شوَّه الخوف ملامحهم، لكن لم يُخفِ لُمعةَ الحماس التي تتقد بها عيونهم.

قدم له الحراس حصانًا، ركب على صهوته، وضع سيفه في حزامه، والحقيبة المزودة بالطعام والماء على ظهره. وانطلق الجواد يشق طريقه شمالاً نحو الغابة المحظورة، يُشيِّعه الناس بعيونٍ تُشرق أملًا.

عندما أصبح على بُعد كيلومترات عن المملكة، أوقف حصانه وفتح حقيبته. كان داخلها أهم من الطعام والشراب: كنزه الذي قُدِّمَ لأجله كل تلك المسافة. أخرج كيسًا مليئًا بالذهب والمجوهرات، كان قد سرقها من القصر فترة إقامته هناك، بعد أن كسب ثقة الملك. رفع ذلك العقد الذهبي الذي اشتد لمعانه تحت أشعة الشمس وهو يتأمله، ثم انطلقت ضحكاته وقال بصوتٍ مسموع يحدث نفسه:

ـ لقد نجحتُ يا زين، حصلتُ على المكافأة دون أدنى مجهود ودون قتال تنينٍ لم يُفلِح أحدٌ في قتله. والآن، ستعود إلى بلدتِك غانمًا وسيظن الجميع أني لقيتُ حتفي.

لَكَ مِنْ مُخَادِعٍ!"، جاء ذلك الصوت من خلف الشجرة حيث يلوح شبح فتاة ترتدي عباءة تغطي وجهها:

_مَن أنت؟ اكشف عن وجهك!.

أردف بصوت متوتر.

خرجت الفتاة من خلف الشجرة، ورفعت عباءتها ذات اللون الأخضر لتكشف عن شعرها الناري. كانت لارين.

ظل صامتًا لبرهة ثم سألها:

_ماذا تفعلين هنا؟.

أجابت بهدوء:

_ لقد تبعتك.

_ تبعتني! لماذا؟.

لتجيبه بلهجة تزداد حدة:

_لقد شككت فيك عندما رأيت تلك النظرات التي كنت ترمق بها الأطفال. لقد علقتهم جميعًا بأملٍ زائف. ألا تخجل من نفسك؟.

ابتسم ساخرًا وقال:

_ومن أنتِ حتى تتحدثي معي بهذا الشكل؟.

_إليك عرضي: خذني إلى مكان التنين، ولن أخبر أحدًا عن خدعتك. وسأعطيك كنزًا قيمًا.

ضحك بصوت عالٍ، ثم قال مستهزئًا:

_كنز! وهل فتاة فقيرة مثلك لديها كنز؟.

نظرت إليه بتحدٍ وقالت:

_لدي جوهرة قيمة خبأتها لي أمي في مكان لا يعلمه سواي. إنها جوهرة ثمينة. والدتي كانت من سلالة ملكية، لكنها طُردت من القصر عندما تزوجت أبي.

نظر إليها بريبة وقال:

_وهل تعتقدين أنني سأصدق هذه القصة؟.

ردت بثقة:

_هل أبدو لك ممن يخترع القصص وينسج الأكاذيب مثلك؟ إن أوصلتني إلى مخبأ التنين، سأخبرك على مكانها. لا تقلق، ليست في المملكة. لن تخسر شيئًا على أي حال.

فكر الفارس للحظة، ثم وافق على العرض. ركبت خلفه، وانطلق الحصان.

احتضرت الشمس في كبد السماء واصطبغت الغيوم بلونٍ دموي. بدأ الليل يتسلل بخفة إلى الغابة التي وصلا إليها.

كانت غابةً مظلمةً موحشةً، ذات أشجارٍ متشابكةٍ. هدوءٌ مريبٌ ينسكب عليها، وعُيونُ البومةِ تترقبهم. لم يستطع الجوادُ دخولَ الغابةِ، كان شيئًا ما يخيفه ويثيرُ هيجانه، فقررا أن يتخليا عنه وواصلا السيرَ على الأقدام. كانت لارين تنظرُ حولها وقد دغدغَ الخوفُ كيانها، أما زينٌ فقد كان أكثرَ شجاعةً، فهو معتادٌ على الترحالِ في مثلِ هذه الأماكن.

خيم الليل وألقى بجناحيه المهيبين على الغابة. كانا يبحثان عن مكانٍ يقضيان فيه الليلَ، وفي طريقهما جمعوا الأغصانَ والعيدانَ الجافةَ لإشعالِ النارِ. وانتهى بهما المطافُ إلى الجلوسِ قربَ شجرةٍ كبيرةٍ، أشعلوا النارَ وأخرج كلٌّ منهما ما عنده من طعامٍ، دون أن يُكلم أحدهم الآخر بعد العشاء. أرتمَ زينٌ بمعطفه وتوسد ذراعه وادعى أنه نائمٌ، أما لارين فقد كانت تضم قدميها إلى صدرها تمسك بقِلادةِ والدتها وتذكُر رسالةَ أبيها وكل ما حصل بسبب ذلك التنينِ الذي عُقدت العزمُ على قتله بالنصلِ المسمومِ الذي تحتفظُ به في حقيبتها. رفعت رأسها إلى السماء المرصعة بالنجوم، يومانِ وتصلُ إلى وكَرِ الوحشِ وتنتزعُ قلبَه كما انتزعَ هو قلبَها وتركَها وحيدةً.

أشاحت وجهها إلى ذلك الذي يدَّعي النومَ وقالت:

_ماذا فعلتَ هذا؟ ألم تشعر بتأنيب ضميرٍ وأنتَ تنظرُ في تلك الوجوهِ البريئةِ التي علَّقت كلَّ آمالها؟.

عفتْ عينيه، أيقظ كلامُها شيئًا كان ميتًا داخله، إنه الضمير. لقد كان طفلًا يتيمَ الأبوين، ترعرع في الميتمِ، وعندما كبر لم يجد مصدرَ رزقٍ فاحترافَ السرقةَ، وأصبح صائدَ كنوزٍ. لم تكن المرةُ الأولى التي يُخدعُ ملكًا، لقد استولى على كثيرٍ من كنوزِ الملوكِ والأمراءِ وذوي الشأنِ. أصبحت هوايتهُ، ولكن هذه المرة ليس كغيرها، لقد أحس بشيءٍ من الندمِ وعذابِ الضميرِ، ذلك الذي ظنه قد مات منذ زمنٍ.

_هل نمتَ حقًّا؟.

انتشله سؤاله من بحرِ أفكاره ولم يرِدْ خوضَ أيِّ أحاديثَ خاصةٍ مع هذه الفتاة. عمَّ الصمتُ المكانَ إلا من صوتِ الرياحِ وهي تحكي حكايتَها للأوراقِ والأشجارِ.

رمت لارين آخر قطعةٍ من حطبٍ وظلت تُحدق في النارِ وهي تلتهمها بشراهةٍ كما التهمت عائلتها. وبينما هي كذلك، مزق ذلك الصوتُ حاجزَ الصمتِ، كان صادرًا من خلفِ الأعشابِ. وقفت لارين في حذرٍ وهي تُصوّبُ نظرها إلى مصدرِ الصوتِ في ترقبٍ إلى أن لاح بريقُ تلك العينينِ، ثم أُرعِبت عيونٌ ليكثر عددُها.

صرخت:

_ذئابٌ...!

نهض زينٌ مذعورًا وأمسك سيفه ثم صرخ إلى لارين:

_عددهم كبير، لا يمكن قتلهم.. هيا اصعدي إلى الشجرةِ!.

ركضت لارين وصعدت الشجرةَ بعجلةٍ، بينما الذئابُ تقتربُ وزينٌ يشهر سيفه في وجوهها، ثم لحِقَ بلارين إلى أن أحد الذئابِ أحكمَ فكيه على قدمه. لكن لارين رَمَتْهُ بحجرٍ كان معها ومدت لزين يدها، تردد لحظةً ثم أمسك بها وصعد الشجرة.

عبثت أصابع الشمس المتسللة بين أغصان الشجرة بأجفان لارين فأيقظتها من نومها. نظرت إلى الأسفلِ ولم تجد الذئاب، لكن لم تكن هي وحدها التي اختفت، فزين أيضًا غير موجود. نزلت ببطءٍ وهي تمسُد عنقها ثم قطبت حاجبها بغضبٍ وأخذت تلعنُ نفسها لأنها وثقت به، لقد خدعها كما خدع أهل المملكة.

ثم سمعت صوته وهو قادمٌ من خلفِ الشجيراتِ وقال مُحدثًا إياها:

_أنتِ.. لقد وجدتَ طريقًا مختصرًا إلى برجِ التنينِ.

نظرت إليه وشعرت بالخجلِ وأحمر وجهُها، من حسنِ الحظ أن البشر لا يقرأون أفكارَ بعضهم البعض، وإلا لما بقي أحدهم حيًّا. ابتسمت على خاطرها الأخير، أما هو فقد رفع حاجبه ولم يفهم سببَ تصرفاتها الغريبة. ثم قالت بعد أن لمحته ينظر إليها:

_كيف حالُ قدمِك؟.

أجابها:

_ لا تقلقي إنه مجرد جرحٍ بسيطٍ، لقد وُضعت بعض الأعشاب الطبية عليه، سيلتئم قريبًا... والآن، اتبعيني.

واصل الاثنان رحلتهما في وضح النهار، وعند هبوط الليل كانا يبحثان عن مكانٍ يلجآن إليه. فأحيانًا يعثران على كهفٍ، وأحيانًا أخرى ينامان في العراء. حتى بلغا غايتهما عندما لاح البرج من بين الأغصان.

كان البرج قديمًا شاهقًا، تلتف حوله الأغصان. جزم كلاهما أن التنين نائمٌ في قمته. كان يفصلهما عنه نهرٌ عكرٌ، وينبغي عليهما البحث عن طريقةٍ لعبوره. شعرت لارين بالإحباط وقبضت على قلادتها، أما زين فظل يبحث عن طريقةٍ، ينظر هنا وهناك، حتى صاح قائلًا:

_لقد وجدت قاربًا!.

أسرعت إليه لارين وقفزت فرحةً، واعتبرت وجود القارب معجزة. لكن زين كان يشعر بالخطر، فالقارب كان صالحًا، وهذا يعني أنهما ليسا وحدهما مع التنين في هذه الغابة. أخذ يرمق المكان بحذرٍ ثم قال بنبرةٍ تتشح بالجدية:

_هيّا لنركب بسرعة قبل أن تظلم.

كانت السماء محجوبة بالسحب كشبك العنكبوت، بالكاد تتسلل أشعة الشمس بين أشجار الغابة الكثيفة. الرياح تعبث بالأغصان، وحفيف أوراقها كحفيف الثعابين. لامست دفّة القارب اليابسة. نزلت لارين وهي تنظر إلى البرج أمامها. دق قلبها بسرعة، وامتزجت مشاعرها بين الخوف والفرح. التفتت إلى زين الذي ظل ينظر إليها نظرةً تعني "هل أنتِ متأكدة؟" فردت بنظرةٍ حازمةٍ لا تحتاج إلى تأويل، بأنها مصرة على قرارها.

ناولها زين سراجًا لتهتدي به في ظلمة البرج، أما هي فقد ابتسمت وخلعت القلادة ذات الجوهرة الزمردية من رقبتها وأعطتها إليه وقالت:

_هذه هي الجوهرة الثمينة التي وعدتك بها... أنا عند وعدي يا صائد الكنوز، لا تستغرب كثيرًا، لست وحدك قادرًا على الخداع... على أي حال، شكرًا لمساعدتك والآن إلى اللقاء.

لم ينبس بأي كلمة، والتفت ذاهبًا. لكنها أوقفها قائلاً:

_كوني... حذرةً.

ثم ذهب. أما هي فقد ابتسمت، كانت تعلم أنه طيب القلب. ظلت تنظر إليه إلى أن غاب في أحشاء الطريق. ثم حجبت ابتسامتها غيمةٌ من القلق عندما فتحت ذلك الباب القديم الذي أحدث صوت صريرٍ أضاف الرعب على المكان. انفتح الباب أمامها ليكشف عن سلمٍ حلزوني، تقدمت بحذرٍ وصعدت ببطء السلم. تلمست الجدران، كانت لزجةً كأحشاء حيوان. الهدوء مطبقٌ على المكان، ما عدا صوت وقع أقدامها وأنفاسها التي تتردد بنسقٍ متسارع

وصلت إلى قاعةٍ واسعةٍ يتسرب إليها القليل من ضوء النهار عبر النوافذ الصغيرة. كانت الأرضية مرصوفةً برخامٍ أبيض، عُلقت على جدرانها لوحاتٌ زيتيةٌ لوجهٍ مألوفٍ لامرأةٍ شابةٍ جميلةٍ تلمع تحت نور السراج. نظرت إلى بقية اللوحات، كانت كلها تحمل نفس الوجه.

في صدر القاعة الواسعة توجد أريكةٌ بلونٍ أحمر قانٍ، وقد كان وجود الجسد واضحًا، فحزمة الضوء التي تتسلل من بين الغيوم تحارب ظلمة القاعة لتكشف عن جزءٍ من شعره وحواف ثيابه.

_كنت أنتظر قدومك.

نطق الصوت الذي بدا مألوفًا جدًا لها، ثم اتسعت حدقتاها عندما وقف ذلك الشخص أمامها وواجهها. قالت بصوتٍ متحشرجٍ تغلفه الدهشة: "الملك...!"

اقترب منها، وكانت عيناه محمرتين بلون الدم، جعلتها تتذكر تلك الليلة التي نفث فيها ذلك التنين أنفاسه الحارقة على منزلها. وعندما رأت انعكاس وجهها في جمرة عينيه، لكنه لم يقتلها وطار بعيدًا. قطع حبل ذكرياتها قائلًا:

_ ماذا حصل أيتها الصغيرة، هل تذكرتِ شيئًا؟.

تجاوزت لارين صدمتها وردت على السؤال بسؤال:

_ماذا تفعل هنا؟.

_ سؤال غريب! ... وماذا يفعل المرء في منزله؟.

_منزلك؟!.

_نعم، قد كان كذلك من قبل... كنت أسكن هنا مع زوجتي العزيزة إيلين، كان قصرًا جميلًا لكن دُمر ولم يبقَ منه سوى هذا البرج.

_هل أتيتَ لتنتقم من التنين أنتَ أيضًا؟.

نظر إليها وتجاهل سؤالها ثم واصل حديثه وهو يطوف الغرفة ويتلمس لوحات تحمل نفس الوجه، واتضح أنه وجه زوجته.

_ كنت رسامًا شابًا يرسم لوحاتٍ للأميرات والملوك، وأتقاضى راتبًا جيدًا. كنت أشهر الرسامين، وذاع صيتي في كل الممالك. تعرّفت على إيلين، كانت ابنة ملكٍ عظيم، رسمتها وافتتنت بملامحها البريئة. أحببتها وبادلتني الشعور، لكن والدها لم يرضَ أن يزوجها رسامًا مثلي. فهربنا معًا وتزوجنا، وقمنا بتشييد هذا القصر بما أملكه من مال. كنا سعداء إلى أن أتى ذلك اليوم المشؤوم وبعث الملك بساحرة ألقت عليَّ لعنتها وحوّلتني لتنينٍ وحشٍ.

انطلقت صرخةٌ كتمتها لارين في الحال.

أما الملك فقد استمر يعرض شريط حياته:

_كنت أتحول إلى تنينٍ كلما انتصف القمر. فهجرتني زوجتي وهربت بعيدًا، وعلمتُ أنها تزوجت بحطاب فقير، وأنجبت بنتين.

بقيت لارين في حالة من الذهول التام.

نظر إليها الملك، وقد زادت عيناه احمرارًا، وصرخ:

_إنها والدتكِ يا لارين! لقد تركتني ورحلت، فأصبحت وحشًا شريرًا، نزعت الحكم من جدكِ وسعيت للانتقام من هذه المملكة التي رفضتني زوجًا لأميرتهم. أصبحتُ ملكًا بينما والدتكِ كانت زوجة حطاب مسكين، كبرت في السن ولم يتعرف عليها أحد. انتقمتُ منها ومن والدكِ.

سألت لارين وقد اغرورقت عيناها بالدموع:

_لكن لماذا لم تقتلني تلك الليلة؟.

_كنت أعلم أنكِ ستأتين إليَّ كما أتى والدكِ. لقد أخبرته هو أيضًا بالحقيقة قبل قتله، والآن جاء دوركِ. ما إن تنقشع هذه السحب حتى يلوح القمر وأتحول إلى ذلك التنين وأحيلكِ إلى رماد.

رفعت عيناها إلى السلم الصاعد نحو القبة، دفعته فسقط أرضًا وأسرعت إلى السلم، لكنه أمسك بها ومنعها من الهرب، إلى أن جاء صوت من خلفه:

_ اتركها أيها الوغد!.

كان صوت زين الذي سحب سيفه وصرخ:

_ اهربي.

نظر الملك إلى زين وقال باستهزاء:

_ماذا لدينا هنا، الفارس الشجاع! هل ظننتَ حقًا أنني صدقت خدعتك؟!"

استل الآخر سيفه وبدأت السيوف تتقارع.

صعدت لارين السلم بسرعة ووصلت إلى السطح، كان ارتفاعًا شاهقًا حتى شعرت بالغثيان، السحب بدأت بدأت تنقشع وضوء القمر يتسرب من بين شقوقها. داخل البرج استطاع الملك رمي سيف زين بعيدًا، بينما

وضع سيفه هو على عنق الشاب وكاد يقتله إلى أن انسكب ضوء قمري في وسط القاعة. ترك الملك زين وصعد بسرعة إلى السطح، حيث كانت لارين تنظر إلى القمر المنتصف بخوف حتى سمعت خلفها رفرفة جناحيه التي كادت تسقطها من فوق السطح، التفتت إليه وقد اقشعر بدنها وسرت فيه رعشة، لقد رأت مجددًا انعكاس وجهها الخائف في جمرة عينيه ولكن هذه المرة هي قريبة إليه للغاية تسمع زفير أنفاسه المخيف، جلده الصلب، ومخالبه التي تلمع كالسكاكين لم تكن في حياتها قريبة إلى الموت لهذه الدرجة، نعم لقد تيقنت أنها النهاية إلى أن أطلق التنين صرخة مكتومة عندما غرس زين سيفه في ذيله، التفت التنين إليه وصرخ زين إلى لارين: «الآن...» أخرجت نصله المسموم وغرسته في قلبه، كانت نظرته الأخيرة مزيجًا بين الحزن والكره، ابتعدت عنه سريعًا، رفرف بجناحيه ونفث لآخر مرة لهيب أنفاسه فعرض رقصة النار على مسرح السماء ثم احترق بناره وسقطت حبات من الرماد اللامع كثَلْجٍ أسود غمر الغابة. «لقد جفف الشر كل ينابيع الرحمة في قلبه.. كان سيتخلص من لعنته لو أنه نسي انتقامه.» هكذا قالت لارين وهي تشعر بالحزن وانتهت تلك الليلة الصعبة. بدأت خيوط الفجر تتسرب بين الغيوم عندما قدم الحراس المسلحون إلى البرج وأخذوا زين ولارين بعد أن علم الوزير حقيقة الملك الذي ظل شاكًا فيه

عندما رأى أثر حريق على كتفه فحقق في الأمر حتى علم الحقيقة.. كما أنه من قام بإحضار ذلك القارب.

رحلوا جميعًا ثم احترق البرج وارتفعت ألسنة اللهب إلى كبد السماء وصبغتها بحمرة دموية، وخيل إلى لارين أنها رأت شبح التنين يودعهم ويطلب أن يسامحوه فلم يكن سوى ضحية معاملة طبقية. عادت لارين وزين برفقة الجنود إلى المملكة وقد استقبلهم الناس استقبالًا حارًا وأخذوا

يرشوقونهم بالورود، شعرت الفتاة بفرحة لا توصف عندما رأت الأطفال يلعبون ويقفونزات فرحًا والنساء والرجال يرقصون، ثم عين الوزير لارين حاكمةً للمملكة باعتبار أنها تنحدر من السلالة الملكية وأن جدها كان الحاكم الأول للمملكة، لكنها أقسمت أمام الجميع أن تعاملهم سواسية وأن لا تحكم على الأشخاص من مظهرهم وطبقته الاجتماعية كما كان يفعل جدها. فرح الجميع بحاكمته الجديدة وواصلوا احتفالهم.
كانت لارين في حديقة القصر عندما أتى زين من خلفها وقال:

_مرحبا.. يا مولاتي.

أردفت ضاحكة

_لا داعي لكل هذه الرسمية.

بادلها الابتسامة وأخرج من جيبه القلادة وأعطاها لها ثم قال بنبرة دافئة لم تعهدها فيه:

_إنها ذكرى من عائلتك لا يمكن أن أخذها مهما كانت قيمتها... كما جئت لأودعك، تعلمين أنني رحال ولا أستقر في مكان، لا تزال هناك كنوز عليا اصطيادها.

هم بالرحيل لكنها أوقفته قائلةً:

_ ما رأيك...لو تستقر هذه المرة وتبقى في القصر.

نظر إليها وأردف بتساؤل:

_ماذا؟.. هل ستوظفيني عندك مستشارًا؟.

في الحقيقة فكرت في رتبة أعلى. تبادل الابتسامات وتعانقت نظراتهما. وفي اليوم التالي أقيم حفل زواج الملكة الشابة من صائد الكنوز البطالين اللذين أنقذا المملكة من شر التنين، فعاشت المملكة في سلام ووئام وعلم الجميع أن الطبقات الاجتماعية ليست معيار الشر والخير وإنما بالأفعال يعرف الإنسان وكم من فقير بقلب من ذهب وكم من غني في قلبه صدأ. اختتمت الأم القصة بهذه العبارة وأغلقت الكتاب، مسحت على رأس ابنها الصغير بحنان ثم قالت:

_الآن يجب أن تنام يا عزيزي... وغدًا سأروي لك حكايةً أخرى.» أومأ برأسه إيجابًا، ثم غادرت الأم الغرفة وظل الطفل ينظر من نافذته إلى

السماء المرصعة بالنجوم والقمر المنتصف إلى أن مر ذلك الخيال الأسود الضخم ذو الجناحين سريعًا في كبد السماء ثم لمعت بريق أحمر. نظر الطفل بعينيه اللامعتين ثم ابتسم وقال: «ربما يحدث... في مكان ما.» وخلد إلى النوم.